وإذا كان الأمر فى ذلك على ما وصفناه فقد علم أنه ليس المفردُ [١] بذَرَبِ اللسان وطلاقته كافياً لهذا الشأن ، ولا كل من أوتى حظًّا من بديهة وعارضة كان ناهضاً بحمله ومضطلعًا بعبئه ما لم يَجمعْ إليها سائر الشرائط التى ذكرناها على الوجه الذى حددناه ، وأنى لهم ذلك ومن لهم به ؟ و﴿ لئن اجتَمعت الإِنسُ والجنُّ عَلى أَن يأْتُوا بِمثْلِ هذا القُرآنِ لا يأْتُون بمثله ولوْ كان بعضُهم لبعضٍ ظهيرًا ﴾[٢] .

وأما ما ذكروه من قلة الغريب فى ألفاظ القرآن بالإضافة إلى الواضح منها ، فليست الغرابة مما شرطناه فى حدود البلاغة ، وإنما يكثر وحشى الغريب فى كلام الأَوحاش من الناس ، والأَجلاف من جفاة العرب ، الذين يذهبون مذاهب العنجهية ، ولا يعرفون تقطيع الكلام وتنزيله والتخير له ، وليس ذلك معدودًا فى النوع الأَفضل من أنواعه . وإنما المختار منه النمط الأَقصد الذى جاء به القرآن ، وهو الذى جمع البلاغة والفخامة إلى العذوبة والسهولة . وقد يعد من ألفاظ الغريب فى نعوت الطويل نحو من ستين لفظة أكثرها بشع شنع . كالعَشَنَّقِ[٣] ، والعَشَنَّط[٤] ، والعطنَّط ، والشوقب والشوذب والسلهب[٥] ، والقوق ، والقاق ، والطوط والطاط . فاصطلح أهل البلاغة على نبذها وترك استعمالها فى مرسل الكلام ، واستَثْقَلُوا الطويل . وهذا يدلك على أَن البلاغة لا تعبأُ بالغرابة ولا تعمل بها شيئًا .

فإن قيل : إنا لا نسلم لكم ما ادعيتموه من أَن العبارات الواقعة فى

---

(١) فى « ب » : التفرد .

(٢) [الإسراء ١٧ /٨٨] .

(٣) الشعنق والعشانق (كعملس وعلابط) الطويل ليس بضخم ولا مثقل .

(٤) العشنط (كعشنق) التار الظريف الحسن الجسم ، وقد وردت هذه الكلمة فى (ا) محرفة إلى عنشط فى صلب الكتاب وهامشه .

(٥) فى الأصل السهلب ولم ترد فى كتب اللغة .

القرآن إنما وقعت فى أفصح وجوه البيان وأحسنها ، لوجودنا أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها كقوله : ﴿ فأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ (١) وإنما يستعمل مثل هذا فى فعل السباع خصوصاً «الافتراس» ، يقال : افترسه السَّبُعُ . هذا هو المختار الفصيح فى معناه ، فأما الأكل فهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع . وكقوله : ﴿ ذلكَ كَيْلٌ يسيرٌ ﴾ (٢) قالوا : وما اليسير والعسير من الكيل والاكتيال ، وما وجه اختصاصه بهذه وأنت لا تسمع فصيحًا يقول : كِلْتُ لزيد كيلاً يسيرًا إلا أن يعنى به أنه يسير العدد والكمية . وكقوله : ﴿ وانْطلقَ الملأُ منهم أَنِ امْشُوا واصبرُوا على آلهتكم ﴾ (٣) ، والمشى فى هذا ليس بأبلغ الكلام ، ولو قيل بدل ذلك أن امضوا وانطلقوا لكان أبلغ وأحسن . وكقوله : ﴿ هَلَكَ عنِّى سلطانِيهْ ﴾ (٤) وإنما يستعمل لفظ الهلاك فى الأعيان والأشخاص كقوله : هلك زيد ، وهلك مال عمرو ونحوهما ، فأما الأمور التى هى معان وليست بأعيان ولا أشخاص فلا يكادون يستعملونه فيها . ولو قال قائل : هلك عن فلان علمه أو هلك جاهه على معنى ذهب علمه وجاهه لكان مستقبحًا غير مستحسن . وكقوله سبحانه : ﴿ وإنهُ لِحُبِّ الخيرِ لشديد ﴾ (٥) وأنت لا تسمع فصيحًا يقول : أنا لحب زيد شديد ، وإنما وجه الكلام وصحته أن يقال : أنا شديد الحب لزيد ، وللمال ، ونحوه . وكقوله سبحانه : ﴿ والذينَ هُمْ للزكاةِ فاعِلُون ﴾ (٦) ولا يقول أحد من الناس : فعل زيد الزكاة ، إنما يقال : زَكّى الرجل ماله ، وأدى زكاة ماله ، أو نحو ذلك من الكلام ، وكقوله سبحانه : ﴿ إنَّ الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ سيَجْعلُ لَهمُ الرحْمَنُ وُدًّا ﴾ (٧) ، ومن الذى يقول :

---

(١) [يوسف ١٢/١٧] .
(٢) [يوسف ١٢/٦٥] .
(٣) [ص ٣٨/٦] .
(٤) [الحاقة ٦٩/٢٩] .
(٥) [العاديات ١٠٠/٨] .
(٦) [المؤمنون ٢٣/٤] .
(٧) [مريم ١٩/٩٦] .

جعلت لفلان ودًّا وحبًّا بمعنى أحببته ؟ ، وإنما يقول وددته وأحببته ، أو بذلت له ودى ؛ أو نحو ذلك من القول . وكقوله سبحانه : ﴿ قُلْ عَسى أَن يكونَ رَدِفَ لكُمْ بعضُ الذى تَستَعْجلونَ ﴾[١] ، وإنما هو ردفه يردفه من غير إدغام اللام . وكقوله سبحانه : ﴿ ومن يُرِد فيه بإلحادٍ بظُلْمٍ ﴾[٢] . وكقوله سبحانه : ﴿ أَوَلم يروْا أَنَّ الله الذى خلق السماواتِ والأَرضَ ولم يَعْيَ بخَلقِهِنَّ بقادرٍ ﴾[٣] فأدخل الباءَ فى قوله بإلحاد وفى قوله بقادر ، وهى لاموضع لها ها هنا[٤] . ولو قيل : ومن يرد فيه إلحادًا بظلم ، وقيل : قادر على أَن يحيى الموتى ، كان كلامًا صحيحًا لا يشكل معناه ولا يشتبه . ولو جاز إدخال الباء فى قوله : بقادر لجاز أَن يقال : ظننتُ أَن زيدًا بخارج ، وهذا غير جائز البتة .

قالوا : ومما يعرض فيه من سوء التأْليف ومن نسق الكلام على ما ينبو عنه ولا يليق به قوله سبحانه : ﴿ كما أَخرجَك ربُّك من بيْتِك بالحقِّ وإنَّ فريقًا من المؤمنين لكارهُون ﴾[٥] عقيب قوله : ﴿ أُولئك هُمُ المؤمِنُون حقًّا . لهم درجاتٌ عِنْد ربِّهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريم ﴾[٦] وكما (فى) تشبيه شىء بشىء ولم يتقدم من[٧] أول الكلام ما يشبه به ما تأَخر منه . وكقوله سبحانه : ﴿ وقلْ إِنى أَنا النذيرُ المبينُ كما أَنزَلْنَا عَلَى المقْتَسِمِينَ الذين جَعَلوا القرآن عِضِين﴾[٨] ، وقوله تعالى : ﴿ كما أَرسَلْنَا فِيكُمْ رسُولاً مِنْكُمْ[٩] .. ﴾ الآية .

قالوا : وقد يوجد فى القرآن الحذف الكثير والاختصار الذى يشكل معه وجه الكلام ومعناه كقوله سبحانه : ﴿ وَلو أَنَّ قرآنًا سُيِّرتْ به الجبالُ أَو

---

(١) [النمل ٧٢/٢٧] .
(٢) [الحج ٢٥/٢٢] .
(٣) [الأحقاف ٣٣/٤٦] .
(٤) نقلها (ص) هنا .
(٥) [الأنفال ٥/٨] .
(٦) [(الأنفال ٤/٨] .
(٧) نقلها (ص) ف .
(٨) [الحجر ٨٩/١٥ – ٩١] .
(٩) [البقرة ١٥١/٢] .

قُطِّعَتْ به الأَرضُ أو كُلِّمَ به الموتى ﴾[١] الآية ثم لم يذكر جوابه ، وفى ذلك تبتير [٢] الكلام وإبطال فائدته . وكقوله سبحانه : ﴿ حَتَّى إذا جاءُوها وفُتِحَتْ أَبوابُها ﴾[٣] الآية ونظائرها . . ثم قد يوجد فيه على العكس منه التكرار المضاعف كقوله سبحانه فى سورة الرحمن : ﴿ فبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ﴾ وفى سورة المرسلات : ﴿ ويلٌ يومئذ للمُكذِّبين ﴾ ، وليس واحد من المذهبين بالمحمود عند أهل اللسان ، ولا بالمعدود فى النوع الأَفضل من طَبقات البيان . وقد يدخل بين الكلامين ما ليس من جنسهما ولا قبيلهما كقوله سبحانه : ﴿ لاتُحركْ بهِ لسانَكَ لتَعجَلَ به إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَه وقُرآنَه فإذا قَرَأْناه فاتَّبِعْ قُرآنه ثُمَّ إنَّ عَلَينا بَيانه ﴾[٤] عقيب قوله ﴿ بَل الإنسانُ على نَفْسِهِ بَصيرة ، وَلو أَلْقَى مَعَاذِيرَه ﴾ بين يدى قوله : ﴿ كلاَّ بلْ تُحِبُّونَ العاجِلَةَ وتَذَرُونَ الآخِرة ﴾ وليس[٥] ذلك بالمستحسن ولا بالمختار عند أهل البلاغة وأَرباب البيان ، والأَحسن أَن يكون الكلام مفصلاً مقسوماً على أَبوابه ، وأَن يكون لكل نوع منه حيز وقبيل لايدخل فى قبيل غيره .

قالوا : ولو كانت سور القرآن على هذا الترتيب فتكون أَخبار الأُمم وأَقاصيصهم فى سورة ، والمواعظ والأَمثال فى سورة ، والاحكام فى أُخرى لكان ذلك أَحسن فى الترتيب ، وأَعون على الحفظ ، وأَدل على المراد ؛ فى أَمور غير هذه يكثر تعدادها .

والجواب : أَن القول فى وجود أَلفاظ القرآن وبلاغتها على النعت الذى ،

---

(١) [الرعد ١٣/٣١] .

(٢) هكذا فى « ب » وفى « ا » والطبعة الأولى تبيين ، والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٣) [الزمر ٣٩/٧٣] .   (٤) [القيامة ٧٥/١٩] .

(٥) هكذا فى « ب » وفى الأصل ولا .

وصفناه صحيح لا ينكره إلا جاهل أو معاند ، وليس الأمر فى معانى هذه الآى على ما تأولوه ولا المراد فى أكثرها على ما ظنوه وتوهموه .

فأما قوله تعالى : ﴿ فأَكَلَهُ الذئْبُ ﴾ فإن الافتراس معناه فى فعل السبع القتل فحسب ، وأصل الفَرْس دق العنق ، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلاً ولا عظمًا ، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ، والفرس لا يعطى تمام هذا المعنى ، فلم يصلح على هذا أن يُعَبَّر عنه إلا بالأكل ؛ على أن لفظ الأكل شائع[1] الاستعمال فى الذئب وغيره من السباع . وحكى ابن السِّكيّت فى ألفاظ العرب قولهم : «أكل الذئب الشاة فما ترك منها تامورا[2] » ، وقال بعض شعرائهم[3] :

فتًى ليْسَ لابْنِ العَمِّ كالذئبِ إن رأى ... بِصَاحِبه يومًا دمًا فَهوَ آكِلُهُ

وقال آخر[4] :

أَبا خُراشَةَ أَمَّـــا أنتَ ذا نَفَـــر ... فإنَّ قَومِىَ لم تــأْكُلْهُم الضَّبُعُ

وفى حديث عتبة بن أبى لهب أنه لما دعا عليه السلام فقال : اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك ، فخرج فى تَجْر إلى الشام ، فنزل فى بعض المنازل ،

---

(١) فى « ب » سائغ .

(٢) التامور : الوعاء والنفس وحياتها ، والقلب وحبته وحياته ودمه ، أو الدم . . . إلخ .

(٣) ينسب البيت للفرزدق ، وفى بعض المراجع لزينب بنت الطثرية . راجع : اللسان ١٣ / ٢٠٤ التنبيه ٣٦ ، الأغانى ٧ / ١٢٣ ، حماسه البحترى ٣٩٦ ، ويروى للفرزدق بيت قريب فى نفس المعنى (راجع الحيوان ٦ / ٢٩٨ ، المعانى الكبير ١ / ٢٨٥ . ويقول الجاحظ : (الحيوان ط ، هارون ٧ / ٦٣) : « الذئب لا يطمع فيه صاحبه فإذا دمى وثب عليه صاحبه فأكله » .

(٤) والبيت للعباس بن مرداس ، وأبو خراشة هو خفاف بن ندبة ، ورواية الحيوان : (أما كنت) ط هارون ٥ / ٢٤ ، وراجع شرح المفصل ط ليبزج ٢ / ١١٨٤ والشعر والشعراء ط شاكر ١ / ٣٠٠ .

جاء الأَسد وأَطاف بهم فجعل عتبة يقول : أَكلنى السبع ، فلما كان فى بعض الليل علا[١] عليه ففدغ رأْسه . وقد يتوسع فى ذلك حتى يجعل العقر أَكلاً وكذلك اللدغ واللسع . أَخبرنا أَبو عمر قال : أَخبرنا أَبو العباس عن ابن الأَعرابى عن أَبى المكارم قال : مررت بمنهال وعلى شفيره صنبور بيده شوشب فقلت لأُمه : أَدركى القامة لا تأْكُلُه الهامة .قال أَبو العباس : الشوشب ، العقرب والقامة الصبى الصغير . وحكى أَيضًا عن بعض الأَعراب أَكلونى البراغيث ؛ فجعل قرص البرغوث أَكلاً . ومثل هذا فى الكلام كثير[٢] .

وأَما قوله سبحانه : ﴿ ونزدَادُ كيْلَ بَعيرٍ ، ذَلِك كيْلٌ يسيرٌ ﴾[٣] فإِن معنى الكيل المقرون بذكر البعير المكيل ،والمصادر توضع موضع الأَسماءِ كقولهم : هذا درهم ضرب الأَمير وهذا ثوبٌ نسج اليمن ، أَى مضروب الأَمير ونسيج اليمن ، والمعنى أَنا نزداد من الميرة المكيلة إِذا صحبَنا أَخونا حمل بعير[٤] ؛ فإِنه كان لكل رأْس منهم حمل واحد لا يزيده على ذلك لعزة الطعام ، فكان ذلك فى السنين السبع القحطة ، وكانوا لا يجدون الطعام إِلا عنده ولا يتيسر لهم مرامه إِلا من قبله فقيل على هذا المعنى : ﴿ ذلك كيلٌ يَسيرٌ ﴾ أَى متيسر لنا إِذا تسببنا إِلى ذلك باستصحاب أَخينا ، واليسير شائع الاستعمال فيما يسهل من الأَمور كالعسير فيما يتعذر منها ؛ ولذلك قيل يُسِّرَ الرجل إِذا نُتِجَت مواشيه وكثر أَولادها . قال الشاعر :

يَعُدُّ الفتى من نفسه كُلَّ ليلة أَصاب غناها مِن صديق مُيَسر[٥]

(١) فى « ا » عدا .
(٢) فى « ا » : ومثل هذا الكلام كثير . والأصل ما أثبتناه .
(٣) (يوسف ١٢ / ٦٥) .
(٤) فى الأصل : حمل به بعير ، والظاهر أن (به) زائدة ، وقد حذفت فى (ا) .
(٥) يسر الرجل تيسيراً إذا سهلت ولادة أبله وغنمه ، والغنم لبنها أو نسلها .

وقال آخر[١] :

هما سَيِّدانا يزعمـــان وإنْــا يسوداننا أَنْ يَسَّرتْ غنمـــاهُما

وقد قيل فى ذلك : كيل يسير أى سريع لا حبس فيه ، وذلك أن القوم كانوا يُحبسون على الباب ، وكان يوسف يقدمهم على غيرهم ؛ وقد قيل إن معنى الكيل هنا السعر . أخبرنى أبو عمر عن أبى العباس قال : والكيْل بمعنى السعر ، كيف الكيل عندكم ؟ أى : كيف السعر ؟ وقد أنشدنا عمرو ابن أبى عمرو الشيبانى عن أبيه[٢] :

فإن تَكُ فى كيل اليمامـــة عســرةٌ فما كيلُ مَيَّافَارِقين[٣] بأَعسَرَا

وأما قوله سبحانه : ﴿ أَنِ امْشُوا واصْبِرُوا على آلهتكم ﴾[٤] وقول من زعم أنه لو قيل بدله : امضوا وانطلقوا كان أبلغ ، فليس الأمر على ما زعمه ، بل المشى فى هذا المحل أولى وأشبه بالمعنى ، وذلك لأنه إنما قصد به الاستمرار على العادة الجارية ولزوم السجية المعهودة فى غير انزعاج منهم ولا انتقال عن الأمر الأول ، وذلك أشبه بالثبات والصبر المأمور به فى قوله : ﴿ واصْبِرُوا على آلهتكم ﴾ والمعنى كأنهم قالوا : امشوا على هينتكم وإلى مهوى[٥] أموركم ، ولا تعرجوا على قوله ، ولا تبالوا به . وفى قوله : امضوا وانطلقوا زيادة انزعاج ليس فى قوله امشوا ، والقوم لم يقصدوا ذلك ولم يريدوه ، وقيل : بل المشى هاهنا معناه التوفر فى العدد والاجتماع للنصرة دون المشى الذى هو نقل

---

(١) هو أبو أسيدة الدبيرى كما فى اللسان ط بولاق ٧ / ١٥٩ ، وينشد قبله بيتاً آخر :

إن لنا شيخين لا ينفعاننا غنيين لا يجدى علينا غناهما

(٢) البيت يرويه ياقوت فى معجم البلدان ٨ / ٢١٤ وينسبه إلى بعض الشعراء .

(٣) ميافارقين مدينة بديار بكر . (٤) (ص ٣٨ / ٦) .

(٥) فى « ب » : والزموا .

الأَقدام ، من قول العرب : مشى الرجل إذا كثر ولده . وأَنشدو :

والشاةُ لا تمشى على الهَمَلَّعِ

أَى لا يكثر نتاجها ، والهَمَلَّعُ الذئب .

وأَما قوله سبحانه : ﴿ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ ﴾ وزعمهم أَن الهلاك لا يستعمل إلا فى تلف الأَعيان فإنهم ما زادوا على أن عابوا أَفصح الكلام وأَبلغه ، وقد تكون الاستعارة فى بعض المواضع أَبلغ من الحقيقة كقوله عز وجل ﴿ وآيةٌ لهم الليلُ نَسْلَخُ منه النهار ﴾[1] والسلخ هاهنا مستعار وهو أَبلغ منه لو قال نخرج منه النهار وإن كان هو الحقيقة وكذلك قوله سبحانه : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ هو أَبلغ من قوله : فاعمل بما تؤمر وإن كان هو الحقيقة ، والصدع مستعار، وإنما يكون ذلك فى الزجاج ونحوه من فِلِزِّ الأَرض ، ومعناه المبالغة فيما أمر به حتى يؤثر فى النفوس والقلوب تأْثير الصدع فى الزجاج ونحوه ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ هَلَكَ عَنِّى سُلْطانيه ﴾ وذلك أَن الذهاب قد يكون على مراصدة العود ، وليس مع الهلاك بقيا ولا رجعى ، وقد قيل إن معنى السلطان هاهنا الحجة والبرهان .

وأَما قوله سبحانه : ﴿ وإنه لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيد ﴾ وأَن الشديد معناه هاهنا البخيل ، ويقال : رجل شديد ومتشدد أَى بخيل . قال طرفة[2]

أَرى الموتَ يعتَامُ النفوسَ ويَصطفِى ... عَقِيلة مَـالِ الفاحِش المُتَشَدِّدِ

واللام فى قوله : ﴿ لحب الخير ﴾ بمعنى لأَجل حب الخير وهو المال لبخيل.

وأَما قوله عز وجل : ﴿ والذين هُمْ للزكاة فاعلون ﴾ وقولهم إن المستعمل فى الزكاة المعروف لها من الأَلفاظ ، كالأَداء والإيتاء والإعطاء ، ونحوها كقولك :

---

(١) [يس ٣٦ / ٣٧] .

(٢) من المعلقة راجع ديوان طرفة ص ٣١ ، والعقد الثمين ٥٨ وروايته : يعتام الكرام .

أدى فلان زكاة ماله وآتاها وأعطاها ، أو زكّى ماله ، ولا يقال : فعل فلان الزكاة ، ولا يعرف ذلك فى كلام أحد . فالجواب أن هذه العبارات لا تستوى فى مراد هذه الآية ، وإنما تفيد حصول الاسم فقط ، ولا تزيد على أكثر من الإخبار عن أدائها فحسب ، ومعنى الكلام ومراده المبالغة فى أدائها والمواظبة عليه حتى يكون ذلك صفة لازمة لهم ، فيصير أداءُ الزكاة فعلا لهم مضافًا إليهم يُعرفون به ، فهم له فاعلون . وهذا المعنى لا يستفاد على الكمال إلا بهذه العبارة ، فهى إذًا أولى العبارات وأبلغها فى هذا المعنى . وقد قيل إن معنى الزكاة هنا العمل الصالح الزاكى ، يريد – والله أعلم – والذين هم للأعمال الصالحة والأفعال الزاكية فاعلون .

وأما قوله عز وجل : ﴿ سَيجعلُ لهم الرحْمَنُ وُدًّا ﴾ وإنكارهم قول من يقول جعلت لفلان ودّا بمعنى وددته فإنهم قد غلطوا فى تأويل هذا الكلام ، وذهبوا عن المراد فيه ، وإنما المعنى أن الله سيجعل لهم فى قلوب المؤمنين ، أى يخلق لهم فى صدور المؤمنين مودة ، ويغرس لهم فيها محبة ، كقوله عز وجل : ﴿ واللهُ جَعَل لكُم منْ أَنفُسِكُمْ أَزوَاجًا ﴾[1] أى خلق .

وأما قوله سبحانه : ﴿ رَدِفَ لكم ﴾ فإنهم لغتان فصيحتان : ردفته وردفت له كما تقول : نصحته ونصحت له[2] . وأما قوله سبحانه : ﴿ ومن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظُلمٍ ﴾[3] ودخول الباء فيه فإن هذا الحرف كثيرًا ما يوجد فى كلام العرب الأُول الذى نزل القرآن به ، وإن كان يعز وجوده فى كلام المتأخرين . وأخبرنى الحسن بن عبد الرحيم عن أبى خليفة عن محمد ابن سَلام الجمحى قال : قال أبو عمرو بن العلاء : اللسان الذى نزل به

---

(١) [النحل ١٦ / ٧٢] .

(٢) فى « ب » زيادة (لاينكره عالم باللغة) .

(٣) [الحج ٢٢ / ٢٥] .

القرآن وتكلمت به العرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم عربية أخرى عن[١] كلامنا هذا . وقد زعم بعضهم أن كلام العرب كان باقيًا على نجره الأَول وعلى سنخ طبعه الأَقدم إلى زمان بنى أَمية ثم دخله الخلل فاختل[٢] منه أَشياء ، ولذلك قال أَبو عمرو حين أَنشد قول امرىء القيس[٣] :

نطعنهم سُلْكَى ومخلوجَةً   كرَّكَ لأْمَيْنِ على نابِلِ

ذهب من يحسن هذا الكلام . وأخبرنى أَبو عمر عن أَبى الحسن العباس عمن ذكره أَن أَبا عمرو أَنشد قول الحارث بن حلزة[٤] :

زَعَمُوا أَن كلَّ من ضرب العَيْـ   ـرَ مُوالٍ لنا وأَنَّا الولاءُ

فقال : ذهب من يحسن هذا الكلام . قلت : ولهذا صار العلماء لا يحتجون بشعر المحدثين ، ولا يستشهدون به كبشار بن برد ، والحسن بن هانئ ، ودعبل والعَتَّابى ، وأحزابهم من فصحاء الشعراء والمتقدمين فى صنعة الشعر ونجره . وإنما يرجعون فى الاستشهاد إلى شعراء الجاهلية وإلى المخضرمين منهم ، وإلى الطبقة الثالثة التى أَدركت المخضرمين ، وذلك لعلمهم بما دخل الكلام فى الزمان المتأَخر من الخلل والاستحالة عن رسمه الأَول . فمن لم يقف على هذه الأَسباب ثم قاس ما جمعه من تلاد الكلام الأَول ، واعتبره بما وجد عليه كلام الأَنشاء[٥] المتأَخرين عَىَّ بشىء كثير من الكلام وأَنكره ، وأَما من تبحر فى كلام العرب ، وعرف أَساليبه الواسعة ، ووقف على مذاهبه القديمة فإنه

---

(١) فى « ب » : غير .   (٢) فى « ب » : وأحيل .

(٣) ويروى فى اللسان ١٢ / ٣٢٨ : كر كلامين ، قال : وصفه بسرعة الطعن وشبهه ، بمن يدفع الريشة إلى النبال ، وشعراء النصرانية ١/١٨ : لفتك لأمين على النابل ، وقد أثبته (ا) : كسرك الأمين على نابل وهو خطأ .

(٤) البيت من معلقته .

(٥) هذه اللفظة (الأنشاء) غير واضحة ، وقد وردت العبارة فى (ا) « كلام الإنشا من المتأخرين » .

إذا ورد عليه منها ما يخالف المعهود من لغة أهل زمانه لم يسرع إلى النكير فيه والتلحين . أخبرنا أبو عمر عن أبى العباس قال : قال ابن الخطاب : أنحى الناس من لم يُلَحِّن أحدًا . وسمعت ابن أبى هريرة يحكى عن أبى العباس بن سريج قال : سأل رجل بعض العلماء عن قول الله عز وجل : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهذا البلد ﴾ [١] فأخبر أنه لا يقسم ثم أقسم به فى قوله : ﴿ والتين والزيتُونِ وطُورِ سِينِينَ وهَذا البَلَدِ الأَمِين لقد خلَقْنَا ﴾ [٢] فقال له ابن سريج : أى الأمرين أحب إليك ،أجيبك ثم أقطعك ، أو أقطعك ثم أجيبك ؟ قال : لا بل اقطعنى ثم أجبنى . فقال له : أعلم أن هذا القرآنِ نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحضرة رجال وبين ظهرانىقوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزًا ، وعليه مطعنًا فلو كان هذا عندهم[٣] مناقضة لتعلقوا به وأسرعوا بالرد عليه ، ولكن القوم علموا وجهلت ، فلم ينكروا منه ما أنكرت ، ثم قال له : إن العرب قد تدخل لا فى أثناءِ كلامها وتلغى معناها ، كقول الشاعر :

فى بئر لا حُور[٤]سرى وما شَعَرْ

يريد فى بئر حور سرى وما شعر . وأخبرنى أبو عمر عن أبى العباس عن ابن الأعرابى قال : العرب تذكر لا وتلغيه وتضمر لا وتستعمله ، وأنشد فى الأول قوله :

فى بئر لا حور سرى وما شعر

(١) [البلد ١/٩٠] . (٢) [التين ٩٥/١ – ٤] .
(٣) سقطت لفظة (عندهم) فى ص .
(٤) حار إلى الشىء وعن الشىء رجع حوراً وحؤوراً ،وقول العجاج فى بئر لاحور سرى وما شعر ، أراد فى بئر لا حؤور فأسكن الواو الأولى وحذفها لسكونها وسكون الثانية بعدها . ولا هنا صلة فى رأى الأزهرى وعند الفراء أنها قائمة صحيحة والمعنى فى بئر ماء لا يحير عليه شيئاً) . راجع اللسان ٥ / ٢٩٦ مادة (حور) .

وفى الاخر قول الشاعر :

أُوصِيكَ أَنْ تَحْمَدَكَ الأَقَارِبُ أَو يَرجع المسكين وهو خائبُ

يريد أوصيك ألا يرجع المسكين خائبًا .

قلت : فهذا وما أشبهه زيادات حروف فى مواضع من الكلام وحذف حروف فى أماكن أخر منها ، إنما جاءت على نهج لغتهم الأَولى قبل أن يدخلها التغيير ، ثم صار المتأَخرون إلى ترك استعمالها فى كلامهم . فافهم هذا الباب ، فإنك إذا أَحكمت معرفته استفدت علمًا كثيرًا وسقطت عنك مئونة عظيمة وزال عنك ريب القلب ، وتخلصت من شغب الخصم ، ولا قوة إلا بالله .

ونعود إلى الجواب عن قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فيهِ بِإِلحاد بِظُلْمٍ ﴾ فنقول : قد قيل إن الباءَ زائدة .

والمعنى : ومن يرد فيه إلحادًا بظلم ، والباءَ قد تزاد فى مواضع من الكلام ولا يتغير به المعنى .

كقولك : أَخذت الشيءَ وأَخذت به ، وكقول الشاعر [١] :

نَضْرِبُ بالسيفِ ونرجُو بالفَرج

وكقول الآخر [٢] :

هُنَّ الحرائرُ لا رباتُ أَحمرةٍ سودُ المحاجر لا يقرأْنَ بالسُّوَرِ

يقال : قرأت البقرة ، وقرأت بالبقرة . وقد قرأَ غير واحد من القراءَ : ﴿ تُنْبِتُ بالدُّهْنِ ﴾ بضم التاءِ منهم ابن كثير وأَبو عمرو ، وزعم بعضهم أَن

(١) من شواهد المغنى ، راجع شرح الشواهد للسيوطى ١١٤ ، وشطره الأول : نحن بنى ضبة أصحاب الفلج .

(٢) هو الراعى النميرى (عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل) ، من شواهد المغنى ، راجع الشرح ١١٦ . ويروى للقتال الكليبى أيضاً .

معناه تنبت الدهنَ بعضهم تنبت وفيهادهن كما يقال : جاء زيد بالسيف أى جاء ومعه السيف ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ أَوَلَم يروا أن الله الذى خَلَق السماوات والأَرضَ ولم يَعْىَ بخَلْقهنَّ بقادر . . . ﴾ (١) المعنى قادر على أن يحيي الموتى ، قالوا : وإنما تدخل الباءُ فى هذا المعنى مع حرف الجحد كقوله : ﴿ أليسَ ذلكَ بقادرٍ على أن يحيي الموتى ﴾ (٢) وقد ضارَع أَلم فى معنى الجحد أَليس ، فأُلحق بحكمه ، قالوا : ودخول أَنْ إنما هو توكيد للكلام وأنشد الفراء فى مثل هذا الباءِ(٣) :

فما رجعت بخائبةٍ ركابٌ حكيمُ بنُ المسيب منتهاهَا

قال : فأَدخل الباءَ(٤) ، قال : وتقول : ما أَظنك بقائم(٥) ، فإذا حذفت الباءَ نصبت الذى كانت فيه بما تُعمل فيه من الفعل .

وأما قوله سبحانه : ﴿ كما أَخرجَك ربُّك من بيتِكَ بالحقِّ . . ﴾ الآية ففيه وجوه ذهب إليها أهل التفسير والتأْويل ، كلها محتملة ، أَيها اعتمدت وعَلَّقْتَ عليه الكاف حملها وصح الكلام عليه . وقال بعضهم أن الله سبحانه أمر رسوله أن يمضى لأَمره فى الغنائم على كره من أَصحابه كما مضى لأَمره فى خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون ، وذلك أَنهم فى يوم بدر اختلفوا فى الأَنفال ، وحاجوا النبي صلى الله عليه وسلم وجادلوه ، فكره كثير منهم ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النفل ، فأَنزل الله تعالى الآية ، وأَنفذ أَمره فيها ، وأَمرهم أَن يتقوا الله ، وأَن يطيعوه ، ولا يعترضوا عليه فيما يفعله من شيء فيما بعد إن كانوا مؤمنين ، ووصف المؤمنين ثم قال :

---

(١) [الأحقاف ٤٦/٣٣] . (٢) [القيامة ٧٥/٤٠] .
(٣) راجع شرح شواهد المغنى ١١٧ .
(٤) فى « ب » : قال : فأدخل الباء فى فعل لو ألغيت منه نصب بالفعل لا بالباء .
(٥) فى « ب » : ما أظنك بقائم ، وما أظن أنك قائم .

﴿ كما أَخرجَكَ ربُّك من بيتِك بالحَقِّ وإنَّ فريقًا من المؤمِنين لكارِهُون ﴾ ، يريد أن كراهتهم لما فعلته فى الغنائم ككراهتهم فى الخروج معك وقد حمدوا عاقبته فليصبروا[1] فى هذا وليسلِّموا ويحمدوا عاقبته كذلك . وقيل معناه : أُولئكَ هُم المؤمِنُونَ حقًّا كما أَخرَجَكَ ربُّكَ مِنْ بيتِكَ بالحَقِّ كقوله : ﴿ فَوربِّ السماءِ والأَرْضِ إنه لحقٌّ مِثلَ ما أَنكم تَنْطِقُون ﴾[2] . وقيل « كما »[3] صفة لفعل مضمر وأن تأويله : افعل فى الغنائم كما فعلت فى الخروج إلى بدر وإن كره القوم ذلك ، كقوله سبحانه : ﴿ كما أَرسلنَا فِيكُمْ رسُولاً مِنكُم ﴾ معناه : « كما أنعمنا عليكم بإرسال رسول فيكم من أنفسكم كذلك أُتم نعمتى عليكم » .

وأما قوله سبحانه : ﴿ كما أَنزلْنَا على المقْتَسِمِينَ ﴾[4] فإن فيه محذوفًا يدل ظاهر الكلام عليه ؛ كأنه قال : أَنا النذير المبين عقوبة أَو عذابًا ، كما أَنزلنا ، أَى مثل ما أَنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عِضين . فإن قيل : أَو ليس وإن توجه الكلام وصح على الوجه الذى ذكرتمود فى معنى قوله سبحانه : (كما أَخرجَكَ ربُّكَ من بيتِكَ بالحقِّ) فقد دخله من الانتشار بتفرق أَجزائه وتباعد ما بين فصوله ما أَخرجه من حسن[5] النظم الذى وصفتموه به ؟ قيل : لا ، وذلك لأَنه لم يدخل بينه وبين أَول ما يتصل به إنما قال : ﴿ وأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إن كنتم مؤمنين ﴾ ثم وصف هذا الإيمان وحقيقته إذ كان هذا القسم يقع على أَمر ذى شعب وأَجزاء ، يلزم أَدناه من ذلك ما يلزم أَقصاه ، فلو لم يستوفه بالصفة الجامعة له[6] لم يبن معه المراد ، ثم عطف

---

(١) سقطت من (ا) العبارة : « فليصبروا فى هذا وليسلموا ويحمدوا عاقبته » .

(٢) [الذاريات ٥١ / ٢٣] .

(٣) فى الأصل « ما كان » وصححناها كتصحيح (ا) « كما » ، فى « ب » (الكاف)

(٤) (الحجر ١٥ / ٩٠) . (٥) فى « ب » من جنس . (٦) فى (ا) معه .

بالكلام على أول الفصل فقال : ﴿ كما أخرجَكَ ربُّكَ من بيتكَ بالحقِّ و إنَّ فريقًا من المؤمنين لكارهُون ﴾ . فشبه كراهتهم ما جرى فى أمر الأنفال وقسمها بالكراهة فى مخرجه من بيته ، وكل مالا يتم الكلام إلا به من صفة وصلة فهو كنفس الكلام . فإن قيل : فما معنى قوله : ﴿ لا تُحرِّكْ به لِسَانَكَ لتَعْجَلَ به ﴾ الآية ؟ . وقد اكتنفه من جانبيه قوله سبحانه : ﴿ بل الإنسان على نفسِه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ وقوله : ﴿ كلاَّ بَلْ تحبون العاجلَة وتذرونَ الآخِرَةَ ﴾ . ولا مناسبة بين الكلامين اللذين اعتوراه . قيل هذا عارض من حال دعت الحاجةُ إلى ذكره ، لم يجز تركه ولا تأخيره عن وقته ، كقولك للرجل وأنت تحدثه بحديث فيشتغل عنك ويقبل على شىء آخر — أقبل علىّ واسمع ما أقول ، وافهم عنى ، ونحو هذا من الكلام ، ثم تصل حديثك ولا تكون بذلك خارجًا عن الكلام الأول قاطعًا له ، إنما تكون به مستوصلاً للكلام مستعيدًا له . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميًّا لا يقرأ ولا يكتب وكان إذا نزل الوحى وسمع القرآن حرك لسانه يستذكر به ، فقيل له : تفهمْ ما يوحى إليك ولا تتقلبه[1] بلسانك ، فإنا نجمعه لك ونحفظه عليك . أخبرنا الأصم قال نا أبو أمية الطرسوسى قال : حدثنى عبيد الله بن موسى قال[2] : حدثنى إسرائيل عن أبى إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله سبحانه : ﴿ لا تُحرِّكْ بهِ لِسَانك لتَعْجَلَ بهِ ﴾ قال : كان يُحركُ بِهِ لِسَانَهُ مخَافَةَ أن يتفلت منه .

وأما ما عابوه من الحذف والاختصار فى قوله سبحانه : ﴿ ولو أنَّ قرآنًا سُيِّرت به الجبالُ أو قُطِّعَتْ به الأرْضُ أو كُلِّمَ به الموتى ﴾ فإن الإيجاز فى

(١) فى « ب » تتقلبه .

(٢) فى « ب » : اخبرنا الأصم قال حدثنى أبو أمية الطرسوسى قال حدثنى إسرائيل . . .

موضعه . وحذف ما يستغنى عنه من الكلام نوع من أنواع البلاغة ، وإنما جاز حذف الجواب فى ذلك وحسن لأن المذكور منه يدل على المحذوف والمسكوت عنه من جوابه ، لأن المعقول من الخطاب عند أهل الفهم كالمنطوق به ، والمعنى : لو أن قرآنًا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن . وقد قيل : إن الحذف فى مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فى الحذف كل مذهب ، ولو ذكر الجوابُ لكان مقصورًا على الوجه الذى تناوله الذكر . فحذف الجواب كقوله : لو رأيت عليًّا بين الصفين ! وهذا أبلغ من الذكر لما وصفنا . وكذلك قوله سبحانه : ﴿ وسيقَ الذينَ اتقوا رَبَّهُم إلى الجنة زُمَرًا حتى إذا جاءُوها وفتحت أبوابها . . ﴾ الآية والمعنى كأنه قيل : لما دخلوها حصلوا على النعيم المقيم الذى لا انقطاع له ولا تكدير[1] فيه .

وأما ما عابوه من التكرار ؛ فإن تكرر الكلام على ضربين : أحدهما مذموم وهو ما كان مستغنى عنه ، غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول ، لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغوًا . وليس فى القرآن شىء من هذا النوع .

والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة ، فإن ترك التكرار فى الموضع الذى يقتضيه ، وتدعو الحاجة إليه فيه ، بإزاء تكلف الزيادة فى وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار ، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله فى الأمور المهمة التى قد تعظم العناية بها ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها . وقد يقول الرجل لصاحبه فى الحث والتحريض على العمل : عَجل

---

(١) فى « ب » (تصريد) والتصريد فى اللسان سقى دون الرى ، أو شرب دون الرى .

عجل ، وارم ارم ، كما يكتب فى الأمور المهمّة على ظهور الكتب : مُهم مهم مهم ، ونحوها من الأمور . وكقول الشاعر[١] :

هَـلَّا سأَلْتَ جُمـوعَ كِنْـ ـدَةَ يـومَ وَلَّوا أَيْن أَيْنَـا

وقول الآخر[٢] :

يال بكرٍ أَنشِروا لى كُلَيْبًا يال بكرٍ أَيْـنَ أَيْـنَ الفـرارُ

وقد أَخبر الله عز وجل بالسبب الذى من أَجله كرر الأَقاصيص والأَخبار فى القرآن فقال سبحانه : ﴿ وَلقد وَصلنا لَهُم القولَ لعلَّهم يتذكرون ﴾[٣] وَقال تعالى : ﴿ وَصرَّفنَا فِيه من الوعيد لعلهم يتقون أَو يُحدثُ لهم ذِكرًا ﴾[٤] وأَما سورة الرحمن فإن الله سبحانه خاطب بها الثقلين من الإِنس والجن ، وعدد عليهم أَنواع نعمه التى خلقها لهم ؛ فكلما ذكر فصلاً من فصول النعم جدد إقرارهم به واقتضاءهم الشكر عليه ، وهى أَنواع مختلفة وفنون شتى ، وكذلك هو فى سورة « المرسلات » ذكر أَحوال يوم القيامة وأَهوالها فقدم الوعيد فيها وجدد القول عند ذكر كل حال من أَحوالها لتكون أَبلغ فى القرآن وأَوكد لإِقامة الحجة والإِعذار ؛ ومواقع البلاغة معتبرة لمواضعها من الحاجة . فإن قيل : إذا كان المعنى فى تكرير قوله : ﴿ فبأَى آلاءِ ربكما تكذبان ﴾ تجديد ذكر النعم فى هذه السورة واقتضاء الشكر عليها ، فما معنى قوله : ﴿ يرسَلُ عليكُما شواظٌ من نارٍ ونحاسٌ فلا تنتصران ﴾[٥] ثم أَتبعه قوله : ﴿ فبأَىِّ آلاءِ ربكما تكذِّبانِ ﴾ وأَى موضع نعمة هاهنا ؟ وهو إنما يتوعدهم

---

(١) ينسب إلى عبيد بن الأبرص ، راجع ديوان عبيد ص ٢٨ ط أوربا والصناعتين ط البجاوى وأبو الفضل سنة ١٩٥٢ م ص ١٩٤ .

(٢) هو مهلهل ربيعة راجع الأغانى ط دار الكتب ٥/ ٥٩ .

(٣) [القصص ٢٨/ ٥١] . (٤) [طه ٢٠/ ١٣] . (٥) [الرحمن ٥٥/ ٣٥]

بلهب السعير والدخان المستطير .. قيل إن نعمة الله تعالى فيما أنذر به وحذر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها بإزاء نعمه على ما وعد وبشّر من ثوابه على طاعته ليرغبوا [1] فيها ويحرصوا عليها . وإنما تُحقّق معرفةُ الشيء بأَن يُعْتبر بضِدّه ليوقف على حده .

والوعد والوعيد وإن تقابلا فى ذواتهما فإنهما متوازيان فى موضع النعم بالتوقيف على مآل أمرهما والإبانة على عواقب مصيرهما ، وعلى هذا ما قاله بعض حكماء الشعراء :

والحادثاتُ وإنْ أَصابَكَ بُؤْسُها فهُو الَّذِى أَنْباكَ كيف نَعيمُها

وأما قولهم : لو كان نزول القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم ، فيكون لكل نوع من أنواع علومه حَيِّز وقبيل ، لكان أحسن نظمًا وأكثر فائدة ونفعًا فالجواب : أنه إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياءَ مختلفة المعانى فى السورة الواحدة وفى الآية المجموعة القليلة العدد لتكون أكثر لفائدته وأعم لنفعه . ولوكان لكل باب منه قبيل ، ولكل معنى سورة مفردة لم تكثر عائدته ، ولكان الواحد من الكفار [2] والمعاندين المنكرين له إذا سمع السورة منه لا تقوم عليه [3] الحجة به إلا فى النوع الواحد الذى تضمنته السورة الواحدة فقط ، فكان اجتماع المعانى الكثيرة فى السورة الواحدة أوفر حظًّا وأجدى نفعًا من التمييز والتفريد للمعنى الذى ذكرناه . والله أعلم .

وقد أحب الله عز وجل أن يمتحن عباده ويبلو طاعتهم واجتهادهم فى جمع المتفرق منه ، وفى تنزيله وترتيبه ، وليرفع الله الذين آمنوا منهم والذين أُوتوا العلم درجات .

(١) فى (ا) فيرغبوا وهو خطأ .
(٢) فى « ب » : المتكبرين .
(٣) فى الأصل علينا وقد صححنا « عليه » وكذلك صححه (ا) .